# (1) أوامره

ناداه اللحم الحلو من وراء زجاج ثلاجة المحل، وبدا له –في الحر والصيام– كأنه قطعة من قشدة حمراء مستعدة لأن تذوب من تلقاء نفسها في الفم، وفكّر أن يشويه في الحوش الصغير أمام الباب، وحاول أن يتذكر مكان الشواية ولم يستطع، لكنه حين عاد إلى البيت فوجئ بأمه منهمكة في المطبخ بين الحلل والأدوات، كانت المرة الأولى التي تدخل فيها المطبخ منذ مات أبوه قبل شهور.

رأت كيس اللحم في يده فقالت له بصوت منهك: ضعه في الثلاجة، أبوك قال اطبخوا بطّ.

ارتعش للحظة متشككا في عقلها، لكنها تابعت ببساطة:

"جاءني في المنام". كان جالسا كعادته على الكرسي الكبير بجوار التلفاز، يرتدي جلابية العيد، وقال لي: اعملي بطتين يا سيّدة.

قلت له: البطّ ثقيل على البطن، يُتعب بعد الصيام.

لكنه أصرّ: اعملي بطتين، إنه موسم.

فقالت: حاضر.

فالتفت أبوه يتابع التلفاز، أما هي فاستيقظت على دموعها.

ونهضت ونزلت إلى المركز القريب من العزبة وقبضت المعاش، معاشها ومعاشه، وعرجت على المنفذ الاستهلاكي، اشترت البطتين ومستلزماتهما، وعادت، أضاءت نور المطبخ وارتعشت ركبتاها في المدخل، قضت هنا عمرها كله وتشعر الآن كأنها غريبة فيه أو جديدة عليه.

غير أن الغربة الكاذبة الأولى ذابت خلال دقائق، وتركت محلها للانهماك العذب وللعرق في حرارة المطبخ الضيق، التهما في الإفطار بعضا من البطة وتركت بقيتها في الثلاجة، البطة الأخرى أهدتها للجيران.

- طلب منك هذا أيضا؟ سألها.
- لا. أجابت، رقيّة ساندتني كأنها أختي، نذرتُ أن أذيقها من أول طبخ.

هزّ رأسه، ودخل لينام قبل نوبة الليل، وبعد يومين وقف على الباب يسألها إن أرادت شيئا، قالت له: لا داعي لهذا القميص يا أحمد، ارتد الأزرق.

رأته في رؤيا أمس مع أبيه يضحكان، والأب يجمع شيئا من جيبه ويعطيه للابن، والابن يتأمل الشيء فرحا وكان يرتدي قميصه الأزرق.

"البس الأزرق يا ولدي"، أعادت طلبها، "ليكرمك الله اليوم".

هكذا، ومنذ يوم البطّ، وبعد أقل من أربعة أشهر على رحيله، انبعث أبوه من جديد في البيت، يحدد إفطارا أو عشاء، يذكّرهم بزيارة قريب بعينه، أو يخبر الأم عن أماكن أوراق معينة مختبئة بين الكراكيب.

ثم بدأ مع الوقت يتخذ قرارات أخطر شأنا، كان أحدها حين طلب من الابن، بلغة الأحلام المشفّرة ذاتها، أن يترك وظيفة الليل، وبدأ الابن يتململ ثم يتذمّر، عادت إليه ربكة المعدة التي كانت تصاحبه في حياة أبيه، صار يتوقع في أي لحظة أنه سيراه جالسا على كرسي الصالة أو يصطدم به وهو يتوجه إلى الحمّام، وكلما تلكأ في تنفيذ أوامر الأب التي تأتي عبر المنامات والرؤى، بكت الأم عن جزع حقيقي "ربنا يحميك يا بني"، تقول وفي معنى كلامها يستتر معنى آخر، أن تلك الحماية موقوفة على عدم إغضاب الأب حتى بعد موته.

ومع الوقت داخَله شعور بأنها ربما صارت تخترع تلك المنامات، خاصة حين ترجمت إحدى رؤاها بأن يستبعد فتاة كان يفكر في خطبتها، ثم فتاة أخرى اقترحها سريعا بعد الأولى، "أبي لم يكن ليرفض أبدا أن أتزوج"، هكذا فكّر، وزاد شكّه في رؤى الأم وبدأ يكذّب وحيها وإن لم يجرؤ على قول ذلك إليها صراحة، كانت موجات الشكّ تلك تتصاعد أحيانا فيغضب منها، أو تنخفض فيغضب من أبيه لمواصلته التحكم في البيت من قبره، وفكر للمرة الأولى أن يغادر البيت، وعندها أتاه أبوه في المنام للمرة الأولى، وقف عند مدخل الغرفة حزينا، وأشار برأسه إلى اتجاه غرفة نومه، وقال له: قُم، أيقظ أمك.

## (2) المارة لم يهتموا بما نفعل

في السماء كانت السحب تتهادى بحذر كأنما تخشى أن تنسكب، وعلى الأرض كنت أجدّ الخطى خلف بحر محاولا اللحاق بخطوته السريعة رغم قصر ساقيه، قادني عبر شارع صغير لكنه واسع الشرفات في محرم بك، وتوقف أسفل بناية كبيرة صامتة تحتل ناصيتين، مكثنا تحتها قليلا حتى بدا على بحر أنه تذكّر، عاد ليمشي حتى وصلنا إلى شارع عريض أنارته بلطف شمس بدايات الشتاء السكندري.

هناك حيث وصلنا تساندت البنايات القديمة صفراء متقشّرة وبعيدة على الجانبين، وامتدت عبر الأرض شبكة هائلة من قضبان الترام وقد تداخلت في نفسها كالشرايين، تحرّك بحر منقّلا قدميه بينها وتبعته بحذر، كان ينظر إلى الأرض بتركيز، كمن يتذكّر مع أنه يرى، ويعبر قضيبا تلو الآخر فأعبر خلفه.

وعند نقطة بعينها توقف بحر لثوان، ثم همس: هنا.

وجذبني لأقف خلفه بالضبط.

في اللحظة نفسها، انبعث من بعيد صوت الدمدمة المعدنية المميزة لعجلات الترام، وأخذ الصوت يرتفع بالتدريج، ومن الجهة الأخرى، خلفنا، انبعثت دمدمة شبيهة كأنها صدى الصوت الأول.

ومن موقعي خلف بحر، حيث يعلو رأسي هامته القصيرة، رأيت الترام قادما من الجهة اليمنى، يتبعه شقيقه قادما من اليسرى، كان الترامان يتجهان مباشرة نحونا فبدأت ركبتي ترتجف لا إراديا.

- بحر؟

لم يرد، ثم بعد ثوان قال:

- أغمض عينيك، إن شئت.

لم أجرؤ على أن أفعل، ولمت نفسي مجددا على قبول تلك المهمة التي يتصاعد جنونها، وارتفعت الدمدمة واهتزت الأرض وتطاير الحصى الصغير، وأخذ الترامان يقتربان من الجهتين ويزدادان سرعة، ووددت الهرب لكن بدا لي أن الوقت قد فات، وأنني قد أفقد طريقي وسط غابة القضبان على الأرض، وقد أجد نفسي على القضيب الخطأ، فبقيت محلّي.

وصل الترام الأيمن أولا، تجاوزتنا المقدمة العجوز المتهالكة، وانحرفت بمقدار بسيط جدا لكنه كان يكفي للعبور بجوارنا كأنه يلامسنا، وخيل إلي أنني رأيت قائد الترام ينظر إلينا من مقعده المرتفع بلا أدنى تعبير، وعندها وصل الترام الأيسر، يسير على قضبانه المتداخلة مع الآخر، وينحرف ملليمترات فيعبر إلى يسارنا، العربات من هنا ومن هنا تعلونا، صفراء كأنها ظل للبنايات على الجانبين، لو تحركنا ملليمترا لدهستنا إحداها. كنا في قلب بقعة شبه دائرية بالغة الصغر خلقها توازي الترامين، صوت العجلات هائل ونَفَسُ الموت حاضر والضوء اختفى خلف سقف الترامين العابرين، ثم للحظة بين تقطع الضوء، رأيتُها:

كانت تجلس إلى ماكينة الخياطة في ثياب النوم، وتنظر إليّ متفحصة، قبل أن تقول لي بشيء من الدهشة: كبرت يا سيف.

ثم اختفت كانطفاء نجمة، وبدا كأن الترامين العابرين حولنا لن ينتهيا أبدا، ماذا لو أخطأ بحر؟ ماذا لو أزاحت السنون القضبان عدة ملليمترات، أو ماذا لو مال أحدهما بفعل العمر أو قلة الصيانة؟ هل يشعر المنتحرون بهذي الأحاسيس في الثواني الأخيرة قبل الدهس، هل يرون ما رأيت أم تقتلهم الصدمة العصبية قبل الصدمة الحديدية، ورحل الترامان أخيرًا، تلك "الأخيرًا" لم تستغرق سوى ثوان، لكني أخذت أتحسّس شعري كأنما لأعرف إذا ما ازداد الشيب فيه.

وعلى العكس منّي، بدا بحر منتعشا، ما زالت "نقطة النجاة" -كما سمّاها ودوّنها في أوراقه- موجودة، هل أنشأتها الصدفة أم صممها مهندسٌ ما عمدا، كلعبة سرية، ومن اكتشفها هنا؟

وقبل أن أسأله، وضع بحر يده على كتفي وأشار برأسه عند نقطة التقاء الترامين حيث وقفنا، غمز بعينه وسأل مبتسما: ها؟ هل رأيت شيئا؟

صمتّ مبهوتا لحظة، وتابع هو سؤاله وقد اتسعت ابتسامته: من رأيت؟

أجبتُ بصوت كالفحيح:

- أميّ.

تطلّع إليّ للحظة دون تعبير، ثم هزّ رأسه ببطء لأعلى وأسفل، وقد بدأت نظرته تعكس شيئا من خيبة الأمل، فتح شفتيه ليقول شيئا ثم تراجع، وأخيرا قال بشفتين ممطوطتين: كلاسيك!

كنت ما زلت مأخوذا فلم أعلّق، تأملت شعره الأشيب الأنيق ونظارته الحمراء الغريبة وحيويته التي فسّرتها بحياته الطويلة في الخارج، لم يكن يبدو إطلاقا كشخص سوف يموت بعد أقل من شهر واحد، ولم أكن أعلم بذلك آنذاك ورغم ذلك فلا أستطيع استعادة تلك الذكرى دون أن أخرج موته منها، أرانا دائما، بين الحلم واليقظة، واقفين تحت تلك الشمس اللطيفة في محرم بك بينما لساني الثقيل يعجز عن تحذيره من موته القريب.

# (3) كنت فين يا علي؟

أول ما أحسّ كان حجرا ثقيلا حالكا يستريح بكل ثقله فوق صدره ورأسه، وظن للوهلة الأولى، كما يحدث عادة في كوابيسه، أنه ميت، ثم شعر لجزء من الثانية أنه في إحدى نوبات شلل النوم الذي يحتلّ جسده حين ينام متعبا، لكنه حين حرّك إصبعه تجاوبت أنامله ثم تحرك كوعه فذراعه، وتجرأ ففتح عينه وبهره ضوء الشمس فتطايرت ذبابات عشوائية أمام عينيه، وحرّك رقبته ووجد نفسه في أرض مترَبة مليئة بالنفايات كأنه في مقلب للقمامة، وكأنه يرقد في حفرة غارت سنتيمترات في الأرض، وشعر بألمٍ في مؤخرة الرأس وفي المفاصل وضيقٍ في صدره، ثم أحس بالأرض التي يرقد فوقها تهتز وخيل إليه أنه يسمع صوت أجراس كنائس تضرب بقوة، لكن الصوت بدا بعد ذلك أقرب إلى إنذار مزلقان القطارات وما لبث صوت صافرة هائلة أن أتى من بعيد وازداد قوة، أخذه الرعب وأغمض عينيه ثانية وحين فتحهما وجد قطارا هائلا وقريبا جدا يمر من أعلى يمينه وصافرته تثقب الآذان، وقبل أن يعود نبضه إلى طبيعته كان القطار قد ابتعد واختفى، ودفع ذراعيه أخيرا في الأرض ونهض.

ونظر حوله ولم ير إنسانا، من بعيد حام طائر لم يميّزه قريبا من الأرض ثم ارتفع ثانية وابتعد.

أين أنا؟ وما الآن؟

سأل نفسه وتذكر اسمه بشيء من الجهد، وتحسس جسده ولم يجد جروحا رغم الآلام، ونظر مرة أخرى ولم ير في الأفق سوى أسطح بيوت تبدو من بعيد وقضبان حديدة ممتدة. ثم بزغ السؤال داخله فجأة:

نُهى؟! ماذا جرى لها؟

وتذكّر كل شيء دفعة واحدة وإن لم يتذكر ما أراد حقا أن يتذكر.

كان قد انتهى من قصّ شعره وتزيين وجهه عند صديقه القديم في الحيّ، أهله في البيت ينتظرونه وأهلها في بيتها ينتظرونه، سيصحب أهله ويذهب إلى بيتها ويأخذها من محل الكوافير بالأسفل وإلى قاعة العرس ينطلقون وينهون رحلة الصبر والشوق والتعب ورعبها المقيم (لن تتركني؟ لن تتركني؟) تقولها كل يوم ولا تملّ ويسمعها فيضحك لأن روحه بين ضلوعها منذ زمن.

وخرج من عند صديقه الحلاق واتخذ طريقا مختصرا إلى المنزل، هناك سيرتدي بذلة العرس التي أوصى له بها صديق آخر بتخفيض محترم، البهجة قريبة أو هي -في الأقل– نهاية شوق وتعب، وآخر ما رأى كان أولادا صغارا يلعبون بأطواق معدنية وعربة ربع نقل تحمّل بعض البضاعة من حانوت صغير، وفتاتين تمشيان على مهل وامرأة ترش بعض الماء من شرفة قريبة من الأرض. والتف من خلف البيت الرمادي على ناصية شارع الأوقاف وعبر ممرا ضيقا لا أبواب فيه ولا نوافذ، وخرج من الطرف الآخر واتجه إلى اليمين يمدّ الخطى، وخيل إليه أنه سمع صوتا أنثويا ينادي فالتفت خلفه، ولم ير سوى ظلام.

أين أنت يا علي؟ كم الساعة يا علي؟ ووجد ساعته في يمناه موجودة لم تسرق فاندهش، ونظر فيها وأصابه الرعب، الساعة الثانية عشرة والنصف، وهذي الشمس القوية في الأعلى تقول إنها الثانية عشرة ظهرا لا ليلا، وأنت غادرت الحلاق في الخامسة مساء، لقد مرت الليلة يا علي، فات ليل كامل وأنت في النهار، يشهد على

ذلك الساعة والشمس والجوع الهائل الذي بدأت تحس به، مرت الليلة التي كانت تنتظرك فيها نهى بين أهلها، مرت ولم تأت أنت إليها.

يا الله!

وفي جيبه أحس بوجود هاتفه الصغير، أخرجه ووجده مطفأً، حاول تشغيله فلم يشتغل، لقد فرغ من الشحن تماما كأنما لم يشحن من قبل قط. وداخله خوف إضافي كتمه، وتابع تفتيش نفسه، ها هي محفظة النقود، بطاقات الهوية، كل شيء في مكانه، فماذا جرى وماذا أفعل هنا؟ وتلفت حوله وتساءل: أين "هنا" أصلا؟ وأين البشر؟

سأل نفسه عن البشر لأن البيوت التي وصل إليها بدت خاوية حتى من الأشباح، مشى ببطء ولم يلمح بشريا واحدا، لا رجل ولا شيخ ولا طفل، تحرّك بين البيوت الخاوية وأفزعه صوت الأبواب يحركها الهواء ولا تفضي إلى شيء، بيت وراء الآخر لا صوت ولا رؤى، هل انتهى العالم؟ لكنه تذكّر القطار الذي مرّ.

وخرج إلى طريق شبه سريع، ولمح لافتة مطمورة في التراب، أزاح بحذائه بعض الغبار عن الحروف وقرأ على اللافتة اسم مكان لم يعرفه، ومشى في الطريق وتنفس شيئا من الصعداء حين لمح سيارات نقل متباعدة تمر من وقت لآخر، ولم تتوقف إحداها من أجله، وواصل المشي حتى بدت له على البعد بلدة أخرى .

وانتهى الرعب الخيالي حين لمح طفلا يلعب عند مدخل بيت بعيد في البلدة التي وصلها، وبدأ الناس يظهرون أفرادا وجماعات ماشين وراكبين وإن لم يعرف المكان بعد، وانتبه إلى أن جسده وملابسه ملوثان بالتراب فوقف جانبا وأخذ ينفض نفسه.

ولمح بائعة خضرة فمشى بجوارها ووجدها تخفي وجهها بنقاب، وتابع السير وخاف أن يخبر أحدا أنه تائه فيؤذيه أو يظن به الظنون، ووجد مقهى صغيرا بجواره عربة لبيع الكبدة، فاشترى منها شطيرتين وجلس وجاء القهوجي بالماء أولا ثم بالشاي. وكان تليفزيون صغير يعمل فاقترب منه ليرى ويعرف أي شيء، ولم يتعرف على الأخبار أولا لكنه رأى بالجوار نتيجة حائط، ووجد اليوم الأحد فارتجفت ساقاه اللتان خرجتا من البيت آخر مرة يوم الخميس!

ثلاثة أيام من الغياب لا يوم واحد؟! ماذا يجري وماذا جرى له وللدنيا ولنهى؟

عرف كل شيء فيما بعد، عرف بالإغماءات والانهيار العصبي، عرف بالغضب الذي اشتعل في بيت أهلها وبالإهانات التي لحقت بأهله، عرف بساعات الانتظار في البيت وقاعة الفرح، عرف بانصراف المأذون ثم المعازيم وصدمة المحبين وقلق ذوي الدم، وعرف فيما بعد باختفاء نهى وأهلها وإغلاق البيت، رأى دموع أمه وصمت أبيه وأسئلة إخوته تنهال عليه تطالبه بإجابة وتفسير لغيابه تلك الأيام الثلاثة؟ وخيل إليه أن الدنيا كلها صارت 4 كلمات هي: أين – كنت - يا – علي؟

ولم يكن بجسمه الفارع كدمات أو جروح، ولم يُسرق منه شيء ولم يظهر في غيابه أحد يطالب بفدية ولم تأت اتصالات مريبة، وكأن مصيبة لو كانت لحقت به لحفظت ماء وجهه وإن قتلته. ولكن أيا من ذلك لم يحدث، فقط خرج من الممر ذاك وسمع الصوت الأنثوي ثم استيقظ في بقعة تتوسط المسافة بين القاهرة والإسكندرية أو هي أقرب إلى الأخيرة، وعاد إلى البيت ففوجئوا به في مدخل الشارع كمن رأى جنيا أو مصيبة، ورجع الدائخون من اللف في المشافي وأقسام الشرطة وبيوت المعارف والأصدقاء، ليجدوا أن الغائب سليم لم يُمس وليس لديه ما يشفي الغليل.

## (4) مشينا على الماء وقابلنا غريبا

انتهى سور الكورنيش عند شجرة كبيرة انحنت تشرب من النهر، بعدها لم يكن هناك حاجز بيننا وبين الماء، على ضوء النجوم قبل الفجر مشينا، على يسارنا مبان صغيرة متفرقة تبدو صامتة ومهجورة ولا يزيد أعلاها ارتفاعا عن طابقين، نباح بعيد خافت من كلاب غير مرئية، وخشخشة أشياء صغيرة بعضها حيّ على الأرض. وتوقف بحر فجأة وجذبني إلى طرف الجرف، وبدا كما لو أنه يدعوني للقفز إلى النيل، ولكن على الضوء النجمي رأيت سلما حجريا انبعث من لا شيء، سلم ضيق يمتد من سطح أرضنا العالية ويهبط نحو صفحة النهر، يمتد السلم إلى حيث لا مَرسى ولا قارب ولا كوخ ولا شيء، كأنه يدعونا إلى لقاء تحت الماء.

نزل بحر درجات السلّم بحذر ودون أن يتكلم، ونزلت وراءه، وعند آخر درجتين قبل أن يلامس الماء جلس على الدرجة الحجرية، فجلست على الدرجة التي تعلوه، أسندنا ظهرينا إلى الجدار الملاصق، وقال بحر فجأة: عند جدار وسلم كهذين قبّلت فتاة للمرة الأولى.

أنصتُّ منتظرا أن يكمل لكنه صمت مرة أخرى.

وفي الصمت بدا كأن النجوم تعزف لحنا يهدهدنا ويقودنا إلى النوم، وفجأة من القلب المعتم للنهر انبعثت حركة فانتبهنا، ورأينا بذهول، أو كنت أنا على الأقل مذهولا، رجلا يأتي من قلب النهر ماشيا على الماء، ونهض بحر وقال: الآن. ونزل درجة إضافية حتى لامس طرف حذائه الماء، فانحنى وخلعه، وقال دون أن ينظر اخلع حذاءك فارتجف قلبي.

اقترب الرجل وبدا يرتدي جلبابا وقد رفع طرفه إلى فوق ركبته، وبدا أنه مثل بحر يمسك حذاء أو مركوبا في يديه ويمشي بحذر، ولاحظت أن الماء يصل إلى ما فوق كعبي الرجل بقليل، وكأن قدمه تغطس تحت الماء بملليمترات.

وقف الرجل أمامنا وقال: السلام عليكم.

ردّدنا السلام وتحرك بحر ليفسح الطريق، فصعد الرجل ببطء وتأملنا لحظة وبدا كأنه سيطرح سؤالا، ثم تراجع وصعد إلى الأرض التي صارت سقفنا الآن وابتعد.

ونزل بحر عن السلم ببطء، ووضع قدمه الأولى فغاصت إلى ما فوق الكعبين كما كان الرجل ذو الجلباب، ثم وضع القدم الثانية كالأولى، وتحرك خطوة وهز رأسه وابتسم، هيا بنا.

ولمست قدمي الحافية أرضا زلقة تحت الماء بسنتيمترات، وعرفت أنه قبل الفجر تنغلق بوابات السد القريب فتشحب صفحة المياه وتنخفض، حتى اكتشف الناس أن جزءا مرتفعا من القاع يصير قريبا جدا من وجه الماء لدقائق قليلة، فصاروا يعبرون تلك الطريق المختصرة في تلك الدقائق المعدودة قبل أن تنفتح البوابة ويفيض الماء عاليا ويبعد الأرض إلى القاع، يمشون من البر إلى البر، فيبدون للغرباء كأنبياء أو أولياء يتبخترون فوق الماء بتواضع وجلال. ولم أكن عرفت السر حين خطوت خلف بحر في نيله الغريب، كنت أخطو بحذر وأتأمل الموجات النيلية الهادئة تحت القمر وأحاول تمييز صوتها، وأتذكر اسمه: أكان العجيج اسم هذا الصوت أم الهادّ أم ماذا؟ ماذا كانت تسميه علياء؟ أتخيّلها تقول الاسم وتقلّد الصوت أو تعزفه، كان ذلك في زمن قبل بحر، ابتدأ في يوم كنت أبيت فيه مع صاحب آخر في بيته، صحوت يومها فلم أجد صاحبي ذاك وإن لم أشعر بالصدمة المؤقتة المصاحبة للاستيقاظ في مكان غريب، نهضتُ وتحركت بألفة في المكان بحثا عن حمّام، وكان ذلك حين أتاني صوت الغناء العذب القوي من مكان على يسار الصالة.

صوت الغناء أنثوي ناعم لكنه عريض كأنما لواحدة من العوالم في الزمن القديم، وهو خافتٌ مع ذلك أقرب لهمهمة أو رفرفة أجنحة، تحركتُ نصف صاح ونصف مسحور متَبعا خيط الغناء، وتوقفتُ عند باب المطبخ لأتأملها.

واقفة كانت تحت الضوء الآتي من النافذة، متوسطة الطول عريضة الجسد واسعة العينين حمراء الشعر، كانت ترتدي جلبابا رجاليا أبيض يبدو أكبر من حجمها، تمسك ذيل الجلباب بيدها، وباليد الأخرى تحرّك بهدوء كنكة صغيرة فوق شعلة نار أصغر، ابتسمت لي كأنما لم أفاجئها: صباح الخير. أنا علياء، قهوة؟

أومأتُ برأسي ببطء، ونسيت العالم بالخارج.

وحين كنت أحاول فيما بعد أن أتذكر الأغنية التي كانت تغنيها علياء في مطبخ ذاك الصباح، أو صباح ذلك المطبخ، كنت أفشل في التذكر، ولم تتذكر هي أيضا، وأظنّها لم تحاول، لكني أتذكر دائما أولى همهماتها الغريبة، حين دندنت أو صدحت بصوت مألوف كأنه صوت الموجات النهرية الخافتة أسفل قدمينا أنا وبحر الآن، أم كان شيئا قريبا؟

قالت لي: اسمه الهادّ.

- الهادّ؟

- صوت البحر.

وأضافت وهي تقترب من أذني: أغمض عينيك.

لامست شفتاها طرف أذني وهمهمت، فأتى صوت تدافع الموج حتى شممت الرائحة اللاذعة لصباحات المراهقة في بحري، حين كنا نفرّ إلى الإسكندرية في قطار السادسة صباحا، ونحاول مغازلة فتيات المدارس الفلاحات الشقراوات المتنقلات بين مراكز الدلتا، المتدافعات بين المقاعد الخشبية المزدحمة وشبابيك القطار الرخيص المتكسرة، وبعد أن تغادر آخرهن ننزل في سيدي جابر ونركب الترام إلى الرمل.

- وهو غير اللجب.

فأسألها: وما ذلك أيضا؟

-صوت تلاطم الموج. ويأتيني -مذهولا- صوت الموج العالي الذي كنا نبتهج بإغراقه ملابسنا، وأتراجع برأسي وأفتح عيني وأتأملها: وماذا أيضا؟

تبتسم: كل شيء، كل الأصوات.

صوت المطر "الهمار"، صوت اللهب "الأجيج"، أصوات الرفرفة والسرسبة والحفيف، التغريد، أصوات لم أكن أعرف أن لها أسماء، وأسماء لم أكن أعرف أن لها أصواتًا، وكانت علياء تعرفها جميعا، وتؤديها كلها، في الصباح تهمهم وفي المساء تغني وفي منتصف النهار تأخذني في رحلاتها عبر أصوات الكون. لكن صوت النهر الذي نمشي فوقه الآن لا أتذكر اسمه، وأرى بحر يصعد درجة سلم أخرى على البر الآخر، ويلتفت إليّ ويسألني أن أستعد لرؤية أخرى.

**(5) طبيبه**

أول ما لاحظه أشرف أنّ لا مرايا في هذا المكان، ثمة نوافذ عريضة وزجاج معتم يتشرب الإضاءة الخافتة لكن لا مرايا، لا وجوه مألوفة في هذا المكان الغريب ولا يستطيع حتى أن يرى وجهه.

لأشرف وجه شاب رغم الشيب الواضح في رأسه، تخرّج –كزملائه في كلية الطب- في منتصف العشرينيات من العمر، اختير للخدمة الوطنية لثلاث سنوات، خرج وهو يلامس الثلاثين. حين خرج من المعسكر يوم خدمته الأخير رأى الطريق الصحراوي كأنه الطريق الموحش لحياته، كانت أطول منه طريقه المنتظرة نحو الوظيفة والدراسة للماجستير والدكتوراه وكل ما يسبب له انقباض القولون كلما فكّر فيه. التحق –ليأكل- بخدمة طبيب كان على معرفة بأحد زملائه، عيادة في مكان شعبي تنقده قروشا قليلة كل شهر، لم يبد المستقبل مظلما فحسب بل بدا كأنه تحرك منذ أمد بعيد ولا سبيل إلى اللحاق به، لذا لم يفكر كثيرا حين أتاه العرض.

في البدء قالوا له إنها عيادة خاصة، تقع في مكان هادئ وتخدم خاصة القوم، أبدى تفاؤلا حذرا لأنه لم يعرف لم يمكن أن يختاروا مثله لوظيفة تبدو مربحة مثل هذه.

المفاجأة الأولى أن العيادة التي أخبروه عنها لم تكن في أي شارع أو ميدان، لقد كانت داخل قصر غامض تجاوزوا بعد بواباته طريقا طويلا من الخضرة، المفاجأة الثانية أن العيادة أو المشفى لم تكن تحمل أي اسم، لم يكن فيها من لافتات سوى لافتات الأقسام المختلفة، المفاجأة الثالثة، أنه رغم كثرة الرائحين والغادين بالزيّ الأبيض المميز للطواقم الطبية، لم يلمح أشرف مريضا واحدا، ولم ير من يدل مظهرهم على أنهم من ذوي المرضى، لا كافيتريا للزيارات ولا حتى قسم استقبال، كأنك تجاوزت هذا كله ودلفت مباشرة إلى باطن المستشفى، التي لا تضم غرفها سوى أسرّة معدودة وفارغة.

تطلع أشرف حوله وقال لنفسه ربما لم يتم افتتاح المشفى بعد، ثم عرف أن هذا الافتتاح لن يأتي ولم يأت، لا افتتاح ولا دعوات ولا زوار ولا مرضى، فهذه المشفى كلها مخصصة لرجل واحد، وهو ليس حتى رجلا مريضا.

كانت الصور الطبية التشريحية المعلقة على الجدران في الأقسام المختلفة كلها صور الرجل نفسه، أشعة الأسنان هذه تمثل فكّه، والكبد على اليمين في تشريح الجهاز الهضمي يعود إليه، وهذا المعهد الطبي الصغير الملحق بالمشفى، وتلك المحاضرات التي تمنح فيه والأطباء الذين يتخرجون من الكورسات المتتابعة، كل ذلك مخصص لدراسة جسد وصحة الرجل نفسه.

لا شيء عامًا هنا ولا نظرية طبية أو إحصائية يمكن تطبيقها على الآخرين أو مقارنتها بهم، ليس هذا مكانا للطب بل مكانا لطب السيد إبراهيم العلايلي، لا يمكن نزع المضاف عن المضاف إليه.

وجد أشرف هنا أطباء صغار السن لم يدرسوا أو يعملوا في حياتهم سوى صحة وعادات العلايلي، أطباء العظام هنا هم أطباء عظام العلايلي، وأطباء القلب هم أطباء قلب العلايلي، الباطنة والجراحة والدم والشرايين، بعضهم اضطر للتدخل مرات نادرة والغالبية تدرس وتحلل وتجري منذ سنوات الفحوص الدورية دون أن تمارس مرة واحدة. ليسوا عديمي الخبرة تماما، بعضهم جاء بعد ممارسة قصيرة مثل أشرف، وبعضهم لم يمارس قط إلا نظريا، وبعضهم أساتذة محترمون ماهرون أذاعوا للخارج أنهم اعتزلوا المهنة بينما قبلوا عرض العلايلي سرا ليتفرغوا لرعايته حين يحتاج إليها. معظمهم يعمل هنا وبعضهم يقيم أيضا وقلة منهم تسافر مع العلايلي وتتحرك معه في كل مكان. على بعد خطوات من السيارة التي تضم حراس العلايلي الشخصيين، كانت سيارة أخرى تبدو عادية من الخارج، لكنها مجهزة من الداخل بالمعدات ويجلس فيها أمهر الأطباء والمسعفين، على بعد خطوات من عميلهم الوحيد الذي لا يتحرك بدونهم، خاصة أطباء النوبات الطارئة وعلى رأسهم مختصو القلب والشرايين والمخ، كان العلايلي قد قرر ألا يموت.

مع الوقت صدّق العاملون في مشفى العلايلي أنهم لا يمكن أن يتعاملوا مع جسد غيره، كان سهلا أن يشيعوا اعتزالهم أو عملهم في مشافٍ بعيدة، لكن المشكلة كانت مع الأصحاب والأقارب، مع الاستشارات الدارجة والحالات الطارئة. لم تتوقف المشكلة عند الشرط الذي وضعه العلايلي، أن يطرد الطبيب الذي يضبط متعاملا مع جسد غيره شر طردة، ومعنى "الشر" هنا ليس مجازيا فالعلايلي يعرف كيف ينتقم وينكّل ويسجن إن أراد. لكن المشكلة الأخرى أن الأطباء أنفسهم، أشرف وغيره، تسلل داخلهم الإحساس نفسه: إنهم مملوكون لمشفى العلايلي، أو للعلايلي نفسه بلفظ أدق، لقد أدركوا أن القوة الوحيدة التي يستطيع بها الطبيب تحمّل فكرة أنه يعمل رأيه ومبضعه في حياة الناس، هو تعدد هؤلاء الناس وتنوعهم وكثرتهم. هذا التعدد الذي يمنح الطبيب شعورا أنه إن أخطأ هنا فقد أصلح هناك، كما يمنحه ضمير جندي فصيلة الإعدام، الذي لا يعرف إن كانت الطلقة الحقيقية في سلاحه أم في سلاح زميله، وكذا لا يعرف الطبيب العادي أهو قاتل المريض أم طبيب –أو شيء- آخر.

أما هنا، حيث ليس إلا مريض واحد، وحياة واحدة، فإن الخطأ لا يمكن التنصل منه، والشعور بالقتل ليس منه مهرب. كانت تلك الأفكار تملأ رأسه وهو في الطريق إلى المشفى ومنه، ويجترها داخله بلا نهاية وهو جالس يدرس مريضا قد لا يراه أبدا، وكان يظن سرّه ذاك محبوسا وراء أسوار القصر الهادئ ذي الممرات الخضراء، ويظن نفسه غريبا بين الناس إذا تحدثوا وإذا صمتوا. غير أن ذلك كله قد تغيّر حين سمع يومًا همسًا حول زائرة غريبة، شابة تنتمي إلى المكان ولا تنتمي في الوقت نفسه. عرف إنها ابنة العلايلي، مرّت أمامه لمحًا كطائر لا يمس الأرض ولم تمكث طويلا، عادت من الممر نفسه وغادرت سريعا وبدا لأشرف أن هواءً وهميًا يحرّك شعرها ليطير وراءها. وحين اقتربت من الباب نهض شاب نحيل لم يبد أنه ينتمي إلى عالمها لكنه تبعها في صمت وغادرا معا، ونقل الهمس إليه اسم الفتى "سلام"، وقصته التي أوضحت لأشرف خطورة ما قد تحمله الجينات.

# (6) بقرة بيضاء في حجم الكف

يندهش بحر من الأطباء المؤمنين، لا يرون الفيل في الحجرة، الطب ملحد بطبعه، يقول بحر، وإلا لوجب عليه أن يفسّر كل هذه الأخطاء في الخلق، الأخطاء التي تأتي من المنبع، مع الولادة، أو أخطاء الصناعة التي لا تسمح لهذا الجسد أن يحمل صاحبه المسكين لعدة عشرات قليلة من السنين هي كل عمره على الأرض.

لو لزم على الطبيب أن يكون مؤمنا بشيء، يقول بحر وهو يتابع لف سيجارته، لوجب عليه أن يمنح القداسة إلى نفسه، هو الذي يمضي عمره منهمكا في إصلاح هذه الصناعة الرديئة، في منح فرص أفضل للمخلوقين، عيادات الأطباء ورش توكيل وضمانات لمنتجات الرب الذي يؤمنون به.

لو لم يكن الطب ملحدا لما وجب عليه أن يبذل كل هذا المجهود في حرب الميكروبات والفيروسات، والخلايا التي تنقلب فجأة لتصبح عدوة نفسها، ولاكتفى ببذل نصف أو وربع هذا المجهود وترك الباقي على ربنا، لكن هذا يصلح فقط للأفلام الرديئة.

ومع ذلك فقد رأيت -يقول بحر- ربًّا، بل أربابا وآلهة هنا على الأرض. أولها كان طبيبة شابة صغيرة، لم يكن مضى شهر على وصولي لبلاد البرد، كنت جائعا وبغير مأوى، نقّبت في القمامة يا سيف حتى وجدت شيئا بدا لي غير فاسد، قمامتهم يا سيف أفضل من أكل نصف مطاعمنا. غير أنني لم أكن محظوظا يومها أو ربما كان الخطأ في جسدي المعيب هذا، أكلت نصف "دونات" وجدتها ملفوفة لا تزال في ورقتها البيضاء ولم يكن في طرفها سوى قضمتين، قضمتين صغيرتين تخيلتهما قد حصلتا بأسنان جميلة لفتاة من تلك الملائكة التي تعبر أمامي في الشوارع. أكلت وهدأت معدتي قليلا، ثم اشتعل فجأة ألمٌ هائل في بطني كأن كلبا عض مصاريني من الداخل، دارت الدنيا وانساب العرق مني ليجمده البرد، وأفقت على وجه تلك الإلهة الصغيرة.

كانت تطل فوقي مثل سماء، وتبتسم، وتكلمني بلغة تلك البلد فلم أسمع سوى أنغام سماوية، وكانت تضع أصابعها الحليبية على كتفي وتتكلم، وتجرب الإنجليزية مرة والفرنسية مرة، ووجدت نفسي في ثوب أبيض من أثواب المستشفيات، والطبيبة الشابة -لا تزيد عن منتصف العشرينيات- تواصل الكلام والابتسام. وفهمت بصعوبة أن تسمما أصابني لا من قمامتهم الجميلة، بل كان تسمما كحوليا من ذلك الرُبع الذي شربته من متشرد كان بين النوم واليقظة على ضفة النهر. كاد التسمم يودي بحياتي لولا أن جاءت الإسعاف وأخذتني إلى الطبيبة الصغيرة، غسلت معدتي وطمأنتني وابتسمت لي، وأصرت على أن أبقى حتى الصباح. وحينها جاءت ملابسي فوجدتها مغسولة ومكوية وحين غادرت كانت الطبيبة شاحبة من سهر الليل تقف على باب إحدى الغرف، ابتسمت لي مرهقة وقالت باي باي مستر "بهر"، كنت قد عدت واعيًا شبعانَ أشعر كأنني سأعيش ألف عام، وتلك الإلهة الصغيرة اكتفت بالإيماءة ولم تقبل شكرا، تلك الإلهة الصغيرة عالجتني من موت وأطعمتني من جوع وآمنتني من خوف، ولم تطلب مني أن أشكرها ولو طلبت أن أعبدها لجثوت راكعا، ولم تكن هي الإلهة الوحيدة التي رأيتها هنا.

دعاني مرة إله عجوز وزوجته إلى شرب الشاي في بيت أقرب إلى الكوخ، على أطراف غابة كانا يسكنان، أم أن ذلك بيت الإجازات؟ لم أعرف، هل يستريح الرب، هل يعمل؟

كنت متجمدا هناك ومنحاني كوبًا من الشاي وقدما لي فراشًا أرضيًا في حجرة صغيرة دافئة. لم يخشياني ولم أشكرهما وحين نمت في غرفتهما الدافئة حلمت بهما يطلان عليّ، أم أنهما أطلا فعلا؟

في الصباح قدما لي إفطارا أكلته، وأخبرني الإله العجوز أنه يؤمن بدين واحد له صلاة يومية واحدة: أن يساعد إنسانًا واحدا كل يوم، ودعاني إلى الإيمان بدينه لكني كنت آثما بلا عودة آنذاك فأكملت إفطاري وواصلت

الهروب. كانت سنوات قد مضت على لقائي إلهة المستشفى وكنت قد دخلت جنتهم وارتكبت فيها جريمتي وهربت، لكن الآلهة كانت هنا في كل مكان.

ويلتقط بحر أنفاسه في اللحظة التي وجدنا فيها أنفسنا أمام الحائط الذي سعينا إليه، لم يكن سوى جدار معبد قديم، امّحت الرسومات الملكية لكن بقايا ظلالها ما زالت تشي بطبيعة المكان. مع الفجر صعدت معه طريقا غير ممهد وسط خضرة شيطانية مبعثرة، ارتفعنا مع الجبل وانخفض النيل الذي عبرناه كأولياء وظل خلفنا عريضا ساكنا لا يتدخل، أحاطه من الجهتين شريط ضيّق من نخيل عال وأعشاب لم أعرف كنهها. وحين بدأنا نلهث ظهرت فجأة من بين ثنايا الحجر الجبلي فتحة لا تكاد تدخل رجلا بالغا، ومن الفتحة أشارت لنا أصابع من الداخل فانحنينا ودخلنا.

ظننت أننا داخلان مكانا صامتا ففوجئت بالحركة والأصوات تسري فيه، اعتادت عيناي بالتدريج الإضاءة الصباحية المتسللة، ورأيت حشدا جالسا معظمه نسوة وأطفال، وشممت رائحة بخور، وارتفعت الشمس بحذر يسبقها شعاعها ككشّاف ماهر، فأنار جدارًا ناصعًا في الواجهة خاليًا تقريبا من الرسومات.

ثم اندلع الغناء فجأة.

انطلق المديح النبوي والتواشيح والأذكار، ترددت بلا صدى وبدت غريبة في الجو الفرعونيّ، وسرعان ما صمت حشد النسوة والأطفال وبقيت الأهازيج تتردد، والتعاويذ تتتابع مرتجفة، وحدّق الجميع في الجدار كأنما في شاشة سينما وحدّقت مثلهم.

هنا علاج المحرومين من الرؤى والفاشلين في الاستخارة، الجدار المخفيّ سرّ هذه البلدات المتلاصقة لا تبوح به لأحد، لا يبدو للأغراب إلا جدارا مجرفا منهوبا محطما، أما لأهل هذه القرى، وفي دقائق بعينها بين الفجر والضحى، في صباحات بعينها مبروكة يعلن عنها القمر، تستطيع إن كنت مؤمنا وكنت صادقا وكنت محبا أن ترى من تريد. حدّق جيدا وصلّ على الأنبياء فإذا كنت مفعما بإيمانك فسترى المحبين واضحين أو في غمامة شفافة، ستراهم رأي العين أو يتجسدون في المخيّلة، سيسلّمون عليك أو يرشدونك أو يطمئنونك. حدّق أولا في الجدار حتى تبيضّ عيناك وتطرفان وتدمعان، وبدأنا نسمع النهنهة من حولنا وأصوات النسوة يغمغمن بأسماء، وزحف طفل صغير تحت قدمي حيث جلسنا القرفصاء، ملّست شعره بكفّي وأدهشتني خشونته، ثم عدت أستند إلى الجدار، وأنظر، وقلت إذا كان هؤلاء يرون من فارقوا هنا، فأنا أولى منهم وأدرى برؤية الموتى، حدقت حتى احترق جفني، ورأيت.

رأيت ليلا سرعان ما تبينت فيه كلبا أسود يتحرك في الظلام، تبعه كلب آخر، ثم ثالث حتى صاروا خمسة كلاب، وقفوا جميعا على ناصية شارع بدت لي مألوفة، ثم تحركوا بسرعة يقودهم الكلب الأول بانتظام كأنما فرقة عسكرية، ووصلوا إلى مدخل بناية، مدخل جعلني أنتفض في مكاني أو هكذا شعرت.

كانت تلك بنايتنا القديمة، بناية اللهو والأمان، ورأيت الكلاب الخمسة تصعد السلالم حتى الدور الرابع، حيث كنا نسكن، تتوقف أمام باب شقتنا لبرهة، قبل أن يبدأ الكلب الأول في عواء غريب، سرعان ما تبعته الكلاب الأخرى.

ثم تذكرت، رأيت وتذكرت، كنت نائما في الصالة، وأيقظني صوت النداء، ورأيت أبي في جسمه الضخم الأسمر يخرج من غرفة النوم بفانلة داخلية بيضاء، يتحرك نحو الباب، ينظر من العين السحرية، يتراجع رأسه مبسملا ومحوقلا، يلتقط نفسا عميقا، ثم يفتح الباب بقوة.

فتح الباب ثم وقف أبي في مدخل شقتنا، ووقفت أمامه الكلاب الخمسة وقد صمتت. نبح قائدها نباحا أخيرا صامتا، كأنما يبلغ رسالة، ثم استدار ونزل السلم وتبعه الآخرون في صمت كأنما انتهت مهمتهم.

ولم نفهم الرسالة إلا بعد أسبوع، حين ماتت أمي.

ثم انتبهت إلى هزّة خفيفة في كتفي، ورأيت بحر مبتسما بإشفاق: نمت؟

هذه المرة لم أحك له ما رأيت ولم يسأل، وتطلعت حولي، لم أجد النسوة ولا الأطفال ولا أحدًا، كانت الشمس تملأ المعبد الخالي الآن، وبدا في الضوء الساطع كما لو كان مقبرة عادية، والنقوش التي تخيّلتها فرعونية لم يكن معظمها سوى شخبطات وحفر صنعتها أيادي العابثين. وعند المخرج تهامس بحر مع الرجل الذي أدخلنا وبدا أنه يعطيه أو يأخذ منه شيئا وبدأنا نزول الطريق التي صعدناها، حرّ النهار يتخلل الملابس فتنفذ فيها قطرات العرق. وحين اقتربنا من نهاية المنحدر، اتخذ بحر مسارا مغايرا لما جئنا منه، وفق خطته الحذرة التي تكشّف لي جنونها مع الأيام، وكنت من وقت لآخر أتطلع إليه من طرف خفيّ وقد داخلني ذعر مفاجئ أمام حقيقة أنني مع شخص غريب عنّي تماما في أماكن معزولة غالبا ولا تقل عنه غرابة. ثم أقول لنفسي إنني لا أقل غرابة عن الشخص الذي كنته إلى ما قبل أيام، حين أوقفتني ليلى في ظهيرة حارة خلال إحدى زياراتي النادرة لمجلتنا، ومنعتني -بحسمها المستجدّ- من الكلام، ثم أخرجت من حقيبتها السحرية آخر شيء توقعته، بقرة بيضاء خزفية صغيرة في حجم الكف، أهدتني إياها وهي تقول: ليس لك حجة بعد الآن، ونظرت في عينيّ بقوة خلعت قلبي وابتسامة حاولت ألا أراها، ونطقت بكلمتها ذات المعنيين: سيف، استيقظ.

كان طلبها –أو أمرها- حرفيا، وفي البدء ظننت الهدية التي أعطتنيها مجرد ساعة منبّه عادية وإن صنعوها على شكل بقرة مبتسمة خفيفة الدم، لكنها في الموعد المضبوط أصدرت خوارا هائلا انتزعني من نومي المظلم مفزوعا، لأسكت الصوت الذي خيّل إليّ أنه سيشرخ زجاج النافذة. أدهشني خروج هذا الصوت الجبار من ذلك الجسم الصغير، وذكّرني بأنني تلقيت مفاجأة مشابهة قبل أيام حين أوحى لي اسم "بحر كامل" حين سمعته بشخص ضخم الهيئة أو عالي الهامة على الأقل، لأجد رجلا إلى القِصر والنحافة أقرب، أشيب الشعر بلطف يرتدي بنطالا من الجينز وتي شيرت أزرق يعكسان عمرا أقل من سنّه.

أخبرتني ليلى يومها أنه ينتظرني في ردهة المكتب، وما إن رآني حتى نهض برشاقة، وبعد تعارف سريع، جذبني بلطف من ذراعي لنغادر المكان ونكمل حديثنا في الخارج. كنت قد اعتدت المجانين المتحمسين الذين يأتون إلى مكتبنا مبشرين بمعلومات خطرة ليست إلا في خيالهم، لكنه لم يبد لي خطيرا فخرجت معه. وفي الأسفل تطلع حوله وأخرج مفكرة صغيرة من جيبه، وقال أعتقد أننا قريبان من الممر.

عبرنا شارع 26 يوليو والتوفيقية وصولا إلى شارع رمسيس، وبدونا للحظة كأننا متجهان إلى محطة مصر، عبرنا الطريق إلى شارع الجلاء، متجاوزين الأسوار الحديدية الخضراء، مررنا بجوار مقهى أعرفه يتميز بسوء الخدمة للعابرين، وبدا كأننا سندخل بناية لها طراز تاريخي، قبل أن يتوقف بحر، ويقول مبتسما "استعد".

أعاد مفكرته إلى حقيبة صغيرة على كتفه، وضمّ ياقتي قميصه إلى رقبته، وعبر سريعا وأنا من ورائه مدخل البناية العتيقة التي اتضح أن لها مبنى توءما، وبين المبنيين ممر طويل تبدو من نهايته بعيدا الأسطح الصفراء لمحطة مصر. غير أن ما أذهلني كان التيار البارد الجليدي القوي الذي انبعث بين المبنيين التوءمين. أخذت أطراف ملابسنا -أنا وبحر- ترفرف حتى نظرت حولي باحثا بلا جدوى عن مصدر الهواء. لم يكن هناك سوى الجدران شبه الرخامية الصامتة، وأعلاها فتحات صغيرة تشبه الموجودة في القلاع المملوكية. رفع بحر كاميرا صغيرة وأخذ بعض اللقطات، وأخرج جهازا صغيرا ضغط على طرفه وانتظر للحظات، ثم أعاده إلى مكانه ودوّن كلمات في مفكرته، ثم ضم طرف قميصه مرة أخرى، وقال هيا بنا.

تبعته صامتا مذهولا وسرعان ما عدنا إلى شارع الجلاء، ما إن خرجنا من البناية التاريخية حتى اكتسينا من جديد بالطقس الملتهب لمنتصف شهر يولية.

غير أن بحر كان قد اختفى بعد رحلتنا الأولى في الممر البارد، وكدت أنساه في غمرة أشباحي التي تفاوتت وتيرتها، حتى إن أشد ما أذكره عن تلك الأيام هو دهشتي حين عرفت أن ليلى ذهبت مع فريق المجلة لتغطية حادثة "أطفال المصعد" التي أفزعت الجميع بدمويتها وسرياليتها.

ظهرت ليلى بعد أيام من الواقعة، كانت تستند إلى جدار صالة التحرير أمام النافذة المنخفضة، لكنها بدلا من أن تنظر إلى الشارع أو طرف السماء كانت تتطلع لأسفل كأنما تتأمل حذاءيها. ولمحتني بعد برهة أتطلع إليها، فقالت بلا سلام: أجبرونا هناك على أن نخطو فوق الجثث.

فكرتُ كم تغيّرت، ثم وجدتني أنظر رغما عني إلى ساقيها من تحت التنورة، وتخيلتهما –الساقين- تعبران من فوقي، ثم انتبهت إلى أن هذا يجعلني جثة، ولم يبد لي ذاك سيئا جدا.

ثم تذكرت لحظتها فجأة أنني حلمت بها قبل ليلة، أو قبل ليال، كنا نجلس في مكان كأنه بيتنا، ونأكل معكرونة أعدتها ليلى تشبه تلك التي كنا نشتريها في بداية تعارفنا من مطعم صغير في باب اللوق.

كان الطعام شهيّ المذاق والرائحة وكنت أعرف أننا سنتجه بعض قليل إلى غرفة النوم فاجتاحني شعور مبهج. وحين التفتت عني ليلى وقامت لتجلب كوب ماء، أحسست في فمي بين فتات الطعام بشعرة طويلة أنثوية حمراء اللون، جذبتها من فمي بسرعة قبل أن تنتبه ليلى إليّ، لكن الشعرة أخذت تطول وهي تخرج من فمي وتطول إلى ما لا نهاية حتى بدأتُ في الاختناق، وأخذت أنظر بيأس إلى حيث خرجت ليلى منتظرا عودتها، ولم أتذكر كيف انتهى الحلم.

ولكن ليلى أعادتني الآن إلى الواقع:

- سوف تصاحبه في رحلته، هذا تكليف من المجلة.

نظرت إليها باستفهام، فقالت مبتسمة ومستنكرة:

- بحر، أنسيته؟

تطلعتُ إليها، عادت تجلس وراء مكتبها الصغير بثقة كأنها كانت هنا منذ الأزل، بدا مدهشا كم أنها تأقلمت هنا، ثم أوقفتُ تفكيري عن ولوج تلك الطريق التي أعرف آلامها.

وسألتُها وأنا أفكر في أنني لم أستطع تحديد عمر بحر بالضبط:

- رحلة إلى أين؟

أشارت بسبابتها إلى أسفل وهي تجيب: إلى هنا.. في الوطن أقصد.

.

لم يكن لدي الخيار، ولم أستطع الرفض لأنني منذ أمد طويل لم أقدم في المكتب شيئا جديا، ولولا شفقة ليلى ومساعيها لفصلت منذ زمن، ولم أعد أندهش من انقلاب الأحوال ومن قدرة ليلى على إنقاذي وقد أتيت بها إلى المجلة وإلى الصحافة برمتها، وأوقفت تفكيري مرة أخرى عند هذا الحد.

وعرفت أن بحر، مصري عاد من الغربة بعد سنوات، وأنه -هكذا قال- يكتب تقريرا صحافيا طويلا -أو من أجل كتاب، ربما- عن بعض الأماكن في مصر.

أما مكتبنا، فيريدني أن أرافقه، وهذه هي الخطة:

يكتب بحر تقاريره المفصّلة عن رحلته لينشرها في بلاد غربته الأجنبية، وأكتب أنا لمجلتنا تقاريري الصحافية عنه وعن الرحلة، حركة كثيرة بالنسبة إلى شخص مثلي لم يتحرك كثيرا ولم يهتم بشيء منذ سنوات.

وقمت بمحاولة أخيرة رغم ضعف موقفي:

- أليس من زميل غيري متشوق لرحلة كهذه؟

ردت ليلى بسرعة: كثيرون.

ثم صمتت لحظة وتابعت: بحر من اختارك لترافقه، لا المجلة.

وأردفت أمام صمتي المندهش:

- ولا أعرف السبب، يمكن أن تسأله.

حدقتُ فيها مبهوتا، فلم أعرف الرجل من قبل، وليس اسمي بمعروف لدرجة أن يصل إلى مصري في الغربة، ولو كان ممكنا لاسمي أن يبحر إلى الخارج لكنت أبحرتُ أنا قبله. وبدأ داخلي، ربما لحقيقة أن الرجل يعرفني ويطلبني شخصيا، حماس ضئيل، وخشيت أن أسأله مباشرة لِمَ اختارني خوفا من إجابة قد تفقدني دفعة الحماس الضئيلة فأخذل ليلى ونفسي. وقلت لنفسي إنها مهمة قد تخرجني من الركود، ثم هي أيام وأسابيع وأعود إلى فراشي ويعود بحر إلى وطنه في الغربة، ومن يدري، ربما بطريقة ما يفتح لي طريقا إلى ما وراء البحر، أو دربا يعيدني إلى ليلى أو يعيدها إليّ. بل وبدأت أتخيل، قبل أن أعرف أي شيء، التغطية أو ربما سلسلة التحقيقات التي جاءتني بنفسها إلى حيث أكون.

وبالطبع، كان كل ذلك -ككل شيء آخر في الحياة- محض كذبة، وسأعرف بالتدريج أن مسألة التقرير الصحافي مجرد غطاء لأمر آخر. أمر أكثر جنونا بكثير، لو جاز لنا أن نقسّم العالم إلى ما هو مجنون وما هو غير ذلك، لكني لم أكن أعرف ذلك، ولم أعرف كذلك -ولا بحر نفسه- أنه لن يعود أبدا، وأنني كذلك، بل وليلى نفسها، على نحو ما، لن نعود، تماما كما جرى لعلياء من قبل.